قُتلوا مع والدتهم ، وشرحُ ما حصل فى تلك الأيام طويل ، ولو مكثتُ طول عمرى أذكر لك من أخبارها لكان ما أذكره بالنسبة لما أتركه أقلَّ من القليل . فقال الشيخ : أود أن أعلم كيف كان قتل المساكين الأعراب وكيف سلمت الحكومة فى ذلك ؟ فإن مثل هذا لم يسمع به فى بلاد البربر ولا بين سكان البادية ، فكيف يكون فى الملل المتمدنة ؟ أم كيف يحصل في ملة يقال فيها إنها بلغت من التمدن غايته ؟ فقال الرجل : إن طباع هذه البلاد غريبة جداً لأنهم دائماً فى فتن ومحن ويودون دائماً تغيير صورة حكومتهم وديانتهم كما يغيرون ملابسهم ، فإن شئت وتفضلت علىَّ أنت ومن تحب بالزيارة فى منزلى فهناك نتروَّح بذكر البلاد وأتلو عليك شيئاً مما وقع فى هذه الحادثة من الصلاح والفساد»(٢٨).

وهذه القصة بتفريعاتها ما بين القاهرة ومارسيليا وما بين بعض المصريين والفرنسيين فى مرحلة الاضطراب والبحث عن شكل مناسب للعلاقة بين المحكوم والحاكم كان يمكن أن تكون رواية من روايات مجتمع القرن التاسع عشر فى مصر تترجم لتلك المرحلة التى انفتح فيها بعض المصريين على الغرب فى إطار تطلع مصر إلى العصر الحديث . ومع أن الكاتب تابع قصةَ المصرى الغريب إلى آخرها إلا أنه انتهى إلى ما يشبه الوعظ والتسليم بما وقع